بسم الله الرحمن الرحيم

مكاتبة مع المولى العلامة عبدالرحمن بن حسين شايم

بقلم: عبدالرقيب مطهر حجر

عفا الله عنه

الحمد لله وصل الله وسلم على سيدنا محمد وآله

حين قررتُ نظمَ قصيدتي: (سنا البارق الصعدي أو القبلي)..

لم يَدُر في خلدي أن تشريفاً عالياً سيغمرني به المولى أبقاه الله، وأن حلة قشيبة من شمائله سوف تكسوني. فجوابه تفضل لا يقوم به نظم ولا نثر، وأنى ذلك لولا تلك الخِلال الشريفة والمزايا العالية المنيفة، فقد تقدم إرسال القصيدة وبعد أيام قلائل وصلت إلى مقامه الكريم (بهجرة الفتح) في منطقة (الحاربة) أعلى قاع الصعيد للتسليم والزيارة وبصحبتي الأخ النبيل علي بن عبد اللطيف المؤيد ونجلي مطهر ذو الأربعة الأعوام الذي ناله من دعائه ما أسأل الله أن يرسل عليه فواتح بركاته ونوامي خيراته. وبعد السلام عليه أبقاه الله وتقبيل الأطراف والسؤال عن الحال والأحوال أبدى من الاتحاف والإيناس ما هو معروف من سجاياه، وتطرق الحديث إلى ذكر القصيدة التي وصلته، فأثنى على أسلوبها وفصاحتها؛ ومن عباراته في ذلك أن قال: نبهتنا من النوم؛ كناية لا تخفى وإشارة لا تغبى. وكان قد حرر جواباً رائقاً فواحاً أملاه من فمه الشريف وأنا أسمع وغيري، وفيه من عبارات الثناء نظماً ونثراً ما يعظم على الحاسد، ويعطف عليه قلب المحب وإلا فكاتب الأحرف مهين ولا يكاد يبين، وإنما هي عادة للأكابر في الأخذ بيد الأصاغر إلى كل خير ورفعة.. وقد قلت أبياتاً ثلاثة امتناناً له بذلك، وكتبتها بخطي في نسخة القصيدة التي وصلته وهي:

كفاني فخاراً أن مولايَ راقه ... نظامي وإن أنكى العدوَ المشاققا

فلا الشعر من دأبي ولا أنا شاعرٌ ... ولكنني إن قلتُ فُتّ السمالقا[1]

فلا زال إسجاعي له من مفاخري ... ولا زال في عز على الدهر باسقا

---

(1) السمالق: جمع سملاق وهو البليغ في الخطابة.

وفي خلال تلك الزيارة المباركة ذاكرَ المولى أبقاه الله بأدبيات وفوائد، منها إملاؤه لقصيدة الإمام الهادي عزالدين بن الحسن عليه السلام التي حرصت في قصيدتي على محاكاتها، وكان المفترض إملاء جواب المؤرخ ابن فند رحمه الله عليها لولا ضيق الوقت، ومما تطرق الحديث فيه ما كان عليه الإمام عز الدين عليه السلام من كمال الخصال وحصال الكمال؛ فهو الإمام السابق بيد أنه بذّ الفروعيين مذاكرة، وفاق الأصوليين تبحراً وتدقيقاً، وغبّر في وجه الأدباء مجلّياً. فليعجب النَظار لهذا الإمام كيف اتسع صدره وهو في مقام الأمر والنهي والرئاسة العظمى لنظم تلك القصائد الإخوانية والمتاحفات الأدبية التي لا يبلغ إليها رقة وعذوبة ذو البال المتفرغ الخلي،، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

وسألته أبقاه الله عن سبب اختصاص الإمام بالفقيه ابن فند والتعويل عليه في معارضة قصائده، وإيثاره على غيره من أدباء حضرته أمثال الفقيه عبد القادر بن محمد الهراني الذماري[1]، فقد كانت أيامه ربيع الزمان وحضرته معمورة بالأدباء، فأفاد أن ذلك يرجع إلى أدب الفقيه ابن فند وإلمامه بطريقة الأدباء في صناعة الشعر وتفويفه، وهذا واقع الحال من الفقيه ابن فند رحمه الله، ويعجبني منه ما عبر عن نفسه بقوله في القصيدة الجوابية على الإمام:

إذا الحرُّ أضحى والخمول نزيله بمنزلةٍ فاهتفْ به أن يفارقا
فقلْ يا أخي فارقْ تُرقْ كل صاحبٍ فلن يقطع الصمصام إلا مفارقا
فلولا أطيفالٌ كزغبٍ من القطا لمشهدها تبقي النفوس خوافقا
لما كان ظلي للديار ملازماً ولا كان قلبي للمواطن عاشقا
ولا كنتُ إلا في العراق مزاحماً نحاريرها للمنتهين مرافقا

وقد كان الفقيه ابن فند على قدم صدقٍ في التشيع يظهر ذلك جلياً في شرحه المعروف على البسامة المسمى (مآثر الأبرار) أو (اللواحق الندية) فقد أوجب على نفسه فيه خلوص المودة لجماعة أهل البيت على حد سواء حسنيهم وحسينيهم، لذلك يجد المطالع هذه المزيةَ الفاضلة في كتابه المذكور ظاهرةً جلية، ولعمري لهو مسلك قويم وأسلوب في المآثر يتيم، وقد أشار إلى هذا المعنى بقوله:

لآل الحسين وآل الحسن سكون العراق ومن باليمنْ
وِدَادٌ بقلبي إن تكمن الدراري بأفلاكها ما كمنْ
ودادٌ غذاني به والدي ولذتني أمي به في اللبنْ
فيا عاذلي في هوى حيدر وفاطمةَ الطهر لا تعذلَنْ

---

[1] انظر عنه مطلع البدور: ٣/ ٥١ . ٥٥ بتحقيقنا.

فحبهما وذراريهما عتادي ليوم ظهور الغبنْ

وقد جرت بين الإمام عز الدين وبين الفقيه ابن فند غرر وحجول من الأدبيات والمفاكهات، أشار إلى طرف منها الأخير في مآثر الأبرار وفي ذلك يقول: (قلما أنشأ شيئاً عليه السلام إلا وراسلني به كله أو بعضه، وحثني على الإنشاء على وزنه وقافيته طلباً للمفاكهة وتكثيراً للفائدة في العاجلة والعاقبة) إلى أن يقول ابن فند: (ومن أحب ذلك فليطالعه في ديوانه عليه السلام وديواني فكل قد رسم ما وضعه ورقم من ذلك ما اخترعه) انتهى.

قلت: وهذا الذي رميت إليه بقولي:

وتنشر من ذكرى إمام وشاعر قصائدَ في ثغر الزمان عوابقا

والديوانان في خزانة الضياع ولا وجود لمخبرٍ عنهما، لذلك آثرت في هذه الأوراق بعد رقم القصيدتين إيراد رائعة الإمام وجواب الفقيه ابن فِنْد عليها، تخليداً للمحاسن ونشراً للمفاخر، ولأن ما نشر من ذلك في مآثر الأبرار ص ١٢٤٠ ـ ١٢٤٨ عرض عليه بعض التصحيف والتحريف. وقد تطلعت النفس قبل الشروع في ذلك إيراد قصيدتين في غاية الحسن هما على نفس الوزن والقافية لا يمكن للقلم إغفالهما عن هذا المجموع.

الأولى: للسيد الإمام الهادي بن إبراهيم الوزير رضوان الله عليه قالها جواباً على قصيدة أبي حيان الأندلسي[1] التي عرّض فيها بكتاب الكشاف ومؤلفه جار الله ومنها قوله:

ولكنه فيه مجالٌ لناقدٍ وزلاتُ سوءٍ قد أخذنَ المخانقا

فأجابه السيد الهادي بهذه الأبيات:

رأيتُ مقالاً للصواب مفارقا فاغمدت سيفَ الحق منه المفارقا[2]
مقالَ حسودٍ يشبه الشعر نظمه وإن لم يصغ معنىً من الحسن رائقا
يحث على التفسير كي يقتدي به ويحسب فيه أنه كان صادقا
ويمدح بالاتقان شيخَ زمخشرٍ ويهجوه لما كان في الفضل فائقا
هو الشمس لما لاح ضوء جبينها أغابت نجوماً في السماء شوارقا
وما ذنبه في العلم إلا ارتقاؤه من العلم طوداً شامخ الرأس شاهقا
ولم يك جبرياً ولا متزندقاً ولا فلسفياً بالجهالة ناهقا

---

[1] ( ) هو محمد بن يوسف بن علي أبو حيان الغرناطي الأندلسي الأصل والنشأة، كان شيخ النحاه في عصره، ترجم له الصفدي في الوافي بالوفيات وله فيه مرثية وكان توفي بالقاهرة سنة ٧٤٥هـ وقصيدته التي تعرض فيها للزمخشري موجودة في ديوانه.

[2] ( ) المفارق: جمع مفرق وهو وسط الرأس.

أتى بكتاب أعجز الخلق نظمه وكان لعادات الأفاضل خارقا
وسماه بالكشاف علماً بأنه يكشف من آي الكتاب الحقائقا
ونوّه بالتوحيد والعدل واقتفى طرائقَ ساداتٍ أبانوا الطرائقا
وفارق أهل الجبر والجهل واغتدى لأهل الهدى والعدل فيه موافقا
فلا عيب فيه غير أن به لهم فضائحَ قد أخزتهم وبوائقا
فلما رأوه شيّد العدل قوله وهدّ بُنَى الجبر سموه مارقا
دعوا ذمه أو فاخرونا بمثله وهيهات أن يحكي البغاثُ البواشقا[1]
ولا تأخذوا من علمه وتسللوا لأخذكم منه العلوم البواسقا
فمن أخذ الدينار من حرز أهله ولما يواذنهم به كان سارقا
ومن أظهر الدين الحنيف لسانه ولم يخلص الإيمان عدّ منافقا
وسوف وعدل الله يصلى جهنماً يكون بها للكافرين مرافقا

والأخرى: لصنوه السيد الحافظ محمد بن إبراهيم الوزير صاحب العواصم المتوفى ٨٤٠هـ أرسلها إلى حي الإمام الهادي علي بن المؤيد جد الإمام عز الدين سلام الله عليهم أجمعين وأولها:

ولو شئت أبكيت العيون معاتباً وألهبت نيران القلوب رقائقا[2]
ولكنني أصبحت لله طالباً وأصبحن مني الترهات طوالقا
فإن أنصف الأصحاب لم ألف فارحاً وإن عتبوا لم يصبح الصدر ضائقا
ومن كملت فيه النُّهى لا يسره سرورٌ ولا خاف الحتوف الطوارقا
فصلني أو اقطعني فهذي خليقة تسيغ ردياً من صديقي ورائقا
ولي نفسُ حر ليس أكبر همها ملاطفة ترضي علي الخلائقا
ولولا الرجا أن أرضيَ الله لم أكن على أرض من يجفو أشيم البوارقا
ولكن ذلي في رضا الله عزة وإن كنت فيه للسلو مفارقا
وما لي إلا الصبر في الدهر جنة وإن شيّب الصبرُ الشوى والمفارقا
وما نحن إلا في مجازٍ فلا تُرِدْ مجازاً إذا ما كنت تبغي الحقائقا

---

(1) البغاث: من طير الماء وهو أبيض ويقال للضعيف من الطير الذي يصطاد بغاث. والبواشق: جمع باشق من الطيور الجارحة.

(2) قلت: لعل هذا مطلع القصيدة وأنه لم يرد التصريع.

وقائلةٍ عش بالسلو ممتعاً ونل باكتساب الأصدقاء مرافقا
فقلت لها: لا عيش لي في سوى ولا صاحب في الناس إلا مخالقا
وأين الصفا ؟ هيهات من عيش طالب غدا لأهاويل الممات مراهقا
وللخزي في يوم الجزا مترقباً وللصبر في دار الفناء معانقا
فلومي رويداً إنني غير جازع وغري سوائي إنني لست مائقا

فانظر إلى ملاحة المعاني وانسياب الألفاظ مع هذه القافية المنصوبة وهي من بحر الطويل.

***

ولنعد والعود أحمد إلى ما وعدنا بإيراده

أولا: إيراد نص ما وصل مني إلى مقام سيدي المولى عبد الرحمن أبقاه الله بعد إضافة أبيات إلى القصيدة وتهذيب وتنقيح وقع بعد ذلك، ولفظه بعد البسملة:

سيدي ومولاي علم الآل الشامخ عبد الرحمن بن حسين بن محمد شايم الحسني المؤيدي أبقاه الله وأتحفه بجليل السلام وبالغ التحيات. وبعد:

هاجت بالمحب أشواقه، وتواردت على خواطره المرة بعد الأخرى نظم قصيدة تليق بالمقام العالي، فلم ير ما يناسب الحال والمقام سوى روي وقافية قصيدة مولانا أمير المؤمنين أبي الحسن (عز الدين بن الحسن) رضوان الله عليه وسلامه التي أرسلها في رمضان سنة ٨٩٢ اثنتين وتسعين وثمانمائة إلى الفقيه الفاضل المؤرخ محمد بن علي بن يونس بن فند الصعدي المعروف بالزحيف والتي مطلعها: (أفق أينما وجهت صرت مفارقا) يقيناً مني بنفاقها في الحضرة اليحيوية المؤيدية الشايمية أدام الله ظلالها، ولإتحاف مولاي وإطرابه أيضا، وإحقاقه بما هو أهله من الثناء الفاخر والنظم العامر، ومهنئا له بدخول الشهر الكريم المبارك أدخله الله على الأمة الإسلامية بالنصر المبين والخير العميم. فإن قصر الباع عن تناول أساليب البلاغة، وندت الطباع عن مراعاة مقتضى الفصاحة، فليستر المولى منعما. خادمكم المطيع عبد الرقيب مطهر محمد حجر بتاريخ سلخ شعبان سنة ١٤٢٩ غفر الله له ولوالديه.

وهذا أول القصيدة:

سنا البارق القبلي نَعماك بارقا ولا زلتَ تحكي لوعةَ الصب خافقا
تلوح لعيني مغرمٍ شفّه الهوى فيلقَى حديثاً في خفوقك عالقا
وفي غير ما شكوى يذوب صبابةً ويلتذ مجروحاً ويرتاح ضائقا
فأي محبٍ ما الهوى باعثٌ له غراماً وقد شامَ البوارقَ تائقا؟

أحنّ إلى سفح العذيب وبارق   فيا هل ترى ألقى العذيبَ وبارقا
ولي قلبُ مشتاقٍ إذا جنه الدجى   عفا صبره وابتاع عنه السوابقا[١]
أصالي الجوى عن نائمين تهوموا   وأبلغُ هماً للجوانح حارقا
وتمنعني من أن ألوذ بسلوةٍ   من الدهر آمالٌ يشبن المفارقا
أُكَتّم أشواقي مخافةَ لُوَّمي   وأغدو إليهم مغرم الصدر غارقا
واختلق الأعذار إن قيل ماله   وأحرص في إظهار ما بات زاهقا
ولو أنصفتني العاذلات وجدنني   على غير ما وجهن لي العذل عاشقا
فما رف قلبي في هوى شادن الحمى   ولا بات طرفي من نوى البيض آرقا
ولست أخا لهو ولا بي تطربٌ   فمثلي أبت أحسابه أن يراهقا
ولكنني أهوى الفضائل ماجداً   وأزجي إليها همتي والأيانقا
ومسعاي موقوفٌ على رتب العلى   ونيلي بها فخراً من الذكر لائقا
وسمط عقودي في المديح موفرٌ   على من علا أقرانه والخلائقا
وحيد بني المختار درة فخرهم   إمامهم لا زال في الآل سابقا
حليف الرضا والبالغ الفضل يافعاً   وتارك أبكار العلوم عواتقا
ومرجع أقطاب الهداة وغرة   الأكابر والبدر الذي لاح شارقا
ومن فاق أحساباً وفضلاً ورتبة   وجاوز في عليائه المدح سامقا
كريم المحيا لا يجارى شمائلاً   كما لا يجارى حنكة ومعارقا
أثيرٌ نمى في آل يحيى فأسعدت   إليه المعالي أن يكون موافقا
له خلقٌ سجحٌ ولينُ عريكةٍ   غدا بهما جل الأفاضل فائقا
وحدسٌ وحزمٌ مقدم وتحلمٌ   توقى بها غدراً وكيداً وحانقا
يَلُمّ به الراجي علوماً تفلتت   فيدرك من بعد النّفار الدقائقا
حقيقٌ بما قد قيل قبل لجده   وحبره نظم الزحيفي رائقا
(كبحر غدا باللؤلؤ الرطب قاذفاً   وبالعنبر الشحري في البر دافقا)

---

(١) عفا: انمحى واندرس. والسوابقا: أراد بها هنا الدموع.

(أو الغيث يبدي للسعيد منافعا ... ويبعث حينا للشقي صواعقا)
مناقبُ لو لاقت حمُيَداً لزانها ... وذيلها في الغابرين حدائقا[1]
أكنيه في مدحي له وهو ظاهرٌ ... يرى الناس أفضالاً له وسوابقا
وأوثر فيه القول علّ قصائدي ... تكون لتيّاك المعاني مناطقا[2]
وأخبر عن نفسي متى ما مدحته ... وأكتب عند الله والناس صادقا
فما خلد المغمور مثل قصيدةٍ ... إذا قالها أضحت عليه نواطقا
فخذها ولي المكرمات غريبة ... لها خطراتٌ قد بهرن المهارقا
زها الفكر في إبداعها غير مرهقٍ ... وصاغ الولا والود منها شقائقا
توافيك بالشهر الكريم مهنئاً ... وتهدي إلى عالي المقام الرقائقا
تحاكي قوافيها العلى في ابتكاره ... (أفق أينما وجهت صرت مفارقا)
وتنشر من ذكرى إمام وشاعر ... قصائدَ في ثغر الزمان عوابقا

***

ثانيا نورد نص جواب المولى أبقاه الله على ما سبق ولفظه بعد البسملة:

سيدي الولد العلامة الحبيب البحاثة الأديب الشاعر الناثر الأريب وجيه الإسلام عبد الرقيب بن مطهر بن محمد حجر أصلح الله أحواله وأحسن حاله ومآله، وحرسه عن كل نقص يشين كماله، وقصم أعداءه وحساده، وأحيا به مآثر آبائه وأجداده، وعليه يعود أفضل السلام ورحمة الله وبركاته وتحياته ومرضاته. وافانا كتابكم الكريم والخطاب الوسيم، المزري بالدر النظيم، الحاكي درك الثأر المنيم (فقلت له أهلا وسهلا ومرحبا * بخير كتاب جاء من خير كتاب)، وكان وصوله ثالث شهر رمضان، فتلقيته بالحفاوة والسرور، ووقفت على ما حوت ألفاظه من عقود الشذور. لا جرم أن منشئه من عقدت البلاغة عليه نطاقها، وهو في زماننا ممن مدت عليه رواقها، مع أن الزمان قد كسد فيه سوق الأدب وعفت آثاره، ولكن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، فلله أبوك ولا فض فوك، خلا أن المقام أبقاه الله أطنب في مدح الحقير حسن ظن منه حفظه الله وإلا فأنا في الحقيقة حقير وباعي قصير، نسأل الله العفو والعافية والمعافاة الدائمة، وقد تطفلت إذ عملت أبياتاً غثة ذات ألفاظ رثة، لولا أن المقام حفظه الله سيستر عوارها، ويغطي شنارها، إذ كبر السن وقعقعة الشنّ واعتوار الآلام سلبت مني القوى، والشعر شعور فمتى ضعفت الحواس قل الإدراك والإحساس، فاسبلوا ثوب الستر، واعفوا عما وقع من هجر، عفا الله عنا

([1]) المقصود في البيت حميد الشهيد المحلي مؤلف كتاب الحدائق الوردية في مناقب أئمة الزيدية.

([2]) المناطق: جمع منطقة وهو النطاق وهو كل ما شد به الوسط يقال انتطقت الرجل أي شد وسطه بمنطقته وكذلك المرأه.

وعنكم، وأصلح شأننا وشأنكم، وغفر لنا ولكم بحق الشهر الكريم والنبي العظيم، وصلى الله على محمد وآله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وحرر ٥ رمضان ١٤٢٩ من والدكم عبد الرحمن حسين شايم غفر الله له ولوالديه.

أيا بارقاً قد صير القلب وامقا به صرت في بحر المحبة غارقا
أثار صبابات بنا ولواعجاً وهيّج وجدي كلما شمت بارقا
أحنّ إلى سفح العقيق ولعلعٍ وقلبي إلى نعمان أصبح تايقا
وفي ملعب العشاق أصبحت لاعباً وما أحْسِبَنِّي كنت من قبل عاشقا
أُكَتّم ما بي من هوى وصبابة وارحم من قد صار يا صاح وامقا
وما بي عشق للكواعب إنني بعيدٌ عن الأمر الذي ليس لائقا
ولكن عشقي للمكارم والعلا وإحياء دين الله إذ صار زاهقا
ونشر علوم الآل في كل حالة وصدّ الغواة الشائنين الموارقا
وتنفيذ أحكام الإله التي غدت يغيّرها من كان للدين ماحقا
ففي عصرنا ساد الجهول بجهله وطاغوت أهل الظلم قد صار خانقا
أحين افتقدنا كلَّ حبر مدقق دهتنا دواهٍ أولجتنا المضايقا
فيا ربّ فرج ارسل النصر عاجلاً لدينك يا ذا الطَّول فك العوايقا
وحين أتاني نظم أوحد عصره ومن حاز من علم المجاز الحقائقا
نهضتُ وقد كان الخمول مخيماً بذاك أزلنا كل ما كان عائقا
وفي النظم من عبدالرقيب سرائرٌ تبينت فيه المعجزات الخوارقا
نظام عجيبٌ من عليمٍ مفوّهٍ له سابقاتٌ قد بذذن السوابقا
أراه سيحيي مجدَ آل محمد ويبني لهم صرحاً من المجد سامقا
وينشر في التاريخ فضلَ سراتهم يترجم للماضي ومن كان لاحقا
تكون على الأعداء صاباً وعلقماً ويبعث للحسّاد منها صواعقا
فيا رب إن الناصبين تحزّبوا علينا وأبدوا غلظةً وشقاشقا
ودانوا بتجسيمٍ وجبرٍ وأحدثوا مذاهبَ خزي أظهروا وطرائقا
فيا ربّ دَمِّرهم وفرّق جموعهم وأنزل عليهم حاصباً وبوارقا

وأبقاك يا عبدالرقيب بنعمة تحوز بها عيشاً هنياً موافقا
كفاك إلهي كل بؤس ومحنة وجنبك الله الشرور الطوارقا
وأبقاك ربي للمكارم والتقى لتنشر علماً في البرية باسقا
وختم نظامي أن سلامي عليكم ورحمته ما عظم الخلقُ خالقا

***

وللإستفياء لا أكثر.... نورد رائعة الإمام عز الدين وجوابها مقابلةً على نسخة خزائنية بحوزتي من كتاب مآثر الأبرار، مع تعليقات أثبتها هامش القصيدتين بعضها من فوائد سيدي عبد الرحمن.

قال المؤرخ ابن فند:

(ومن أشعار الإمام عز الدين عليه السلام اللاتي عوّل علي أن أعارضها بما يجانسها قصيدة فريدة أنشاها يتشوق إلى بلاده، ويذكر أنه لا يبرح شوقه مستمراً إن كان بالشام[1] اشتاق إلى أهله باليمن وإن كان بأرض اليمن فكذلك فقال):

أفقْ أينما وَجَّهتَ صرتَ مُفارقا ولم تلق فيما بين حاليك فارقا
تُسرّ بأن تلقى حبيباً ومنزلاً عقيب افتراقٍ صار للقلب غارقا
وما نلته إلا بفرقة منزلٍ وأهل ووُلْدٍ وافتقادك وامقا
فتصبح مسروراً هناك وواجدا وصدرك مشروحاً هناك وضائقا
فيا جامع الضدين والوقت[2] واحدٌ لقد جئت شيئاً للعوائد خارقا
ألا هكذا الدنيا مشوبٌ سرورها وما منحت صفواً من العيش رائقا
إذا ما حلت مرّتْ وإن هي أحسنت أساءت، وتعطي السؤل بالسوء لاصقا
نهضنا إلى كحلان والشوق لم يزل لنا قائداً وسط الطريق وسائقا[3]
فلما بلغنا ما نريد ولم نجد عن القصد عن لقيا الأحبة عائقا
وجدنا التلاقي والتداني وقربنا عقيب ابتعادٍ والوصال الموافقا
أفاد التنائي والتباعد موجباً فأمسى الأسى والكرب للقلب طارقا

---

[1] المقصود بالشام صعدة وبلادها، واليمن: كل ما وقع من البلاد في جنوبيها.

[2] في نخ: والقلب واحد.

[3] كحلان: من أوطان الإمام عز الدين (ع) التي استوطنها أيام دعوته.

إذا ما رأينا من لدينا أحبة محاسنهم زهرٌ تحوز المرافقا
أنسنا وطبنا باللقاء وسرنا مصير النوى من بعد ذلك زاهقا
وعدنا إلى تذكار من شط داره فأضحى بعيداً نازح الدار ساحقا
ومن حجبته أشعب وشواهق فسحقاً لها من أشعب وشواهقا
فثارت نيار للجوى وسط الحشا بها أصبح القلب المتيم حارقا
فلي في الدجى جفنٌ نؤوم عن اللقا وجفنٌ به يمسي على البعد آرقا
وقلبٌ تراه ساكناً بعض ليله وفي بعضه من شدة الوجد خافقا

***

ألا أيها الساري على ظهر سابح يقود الجياد الصافنات السوابقا
تحمل وُقِيْت السوء نظماً محبراً بديعاً بليغاً يفضح الدر فائقا
تبث به الشكوى على الخالق الذي تبارك رحماناً رحيماً وخالقا
وأوقف عليه كل راعي مودة مصونٍ عن الغش الذي ليس لائقا
يواسي ويأسو أو يحبر ناظماً جواباً لما في النظم هذا مطابقا
وخص به المقصود بالذكر أولاً ومن بُعْدِه أضحى له الدمع دافقا
أحبتنا ما بين صنو مفضل تراه صديقاً في الأخوة صادقا[1]
هماماً سما جوداً ومجداً ومفخراً وأصلاً أصيلاً شامخ الفرع باسقا
ونجلٍ كريمٍ يملأ الأرض صيته مغاربها يا مرسلي والمشارقا
حليف معالٍ لم يزل مولعاً بها وما انفك للأسفار خدناً معانقا
ووُلْدٍ سراةٍ طيبين أماجد زكوا عفةً في دينهم وخلائقا
غطاريف أطهارٍ كرامٍ أماثل فما أحد منهم يخاف البوائقا
وأهلٍ بهم صار الفؤاد مولعاً مشوقاً إليهم غاية الشوق تائقا
أحنّ إليهم كلما هبت الصَّبَا وتزداد أشواقي إذا شمت بارقا
ومهما تذكرت الشآم ومن به أقامَ، تذكرتُ العذيبَ وبارقا

---

[1] ( ) سألت سيدي عبد الرحمن عن المقصود بهذا البيت فأفاد أن الإمام كان له إخوة عدة كلهم كانوا في محل من الكمال وليس مثل صنوه داود بن الحسن فهو المقصود هنا بوصف الإمام، وقيل أنه مع كماله ورئاسته كان أديبا له نظم، انتهى من فوائده أبقاه الله.

وإن أنس لم أنس الذي صار فَقْدها ... له عبراتٌ قد أخذن المخانقا[1]

وهل كبدٌ تمشي على الأرض مثلها ... يهون على أحشائها أن تفارقا

وما أم سقبٍ فارقته فلم تزل ... تحنّ حنيناً أسمعته النوائقا[2]

بأشوقَ مني قاطناً ومسافراً ... وأوجدَ مني صامتاً ثم ناطقا

فقل للأسى رفقاً فقد صرت لازماً ... وقل للسلو اذهب فقد صرت طالقا

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... وليس بليت نستفيد الحقائقا

وللشمل جمعٌ ما يشاب بفرقةٍ ... وليس غراب بالتباعد ناعقا

عسى ولعل الله إني بلطفه ... ورحمته ما زلت عمري واثقا

***

قال العلامة الأديب ابن فند:

(وصلتني هذه القصيدة في شهر رمضان الكريم من سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة وأشار الإمام عليه السلام أن أجوب عليها، فجوبت سريعا بهذه القصيدة الآتية، فلما بلغته استجادها واستحلاها، وأنشدها للحاضرين وتلاها، فقلّ منهم من قام من تلك الحضرة حتى استملاها، وهي هذه مجردة عن تخميس أردفتها به بعد مدة وحصل لي منه بسببها جائزة سنية وعطية هنية):

صدقتَ ولم تبرح مدى الدهر صادقا ... وما زلت عن أمثال لقمان ناطقا

وسابقت أرباب المقال إلى العلا ... فقاموا وجاوزت النهاية سابقا

فمن رام إدراكاً لشوطك لم يكن ... لشق غبارٍ من مساعيك لاحقا

بآيةِ ما أبدعت فيما افتتاحه ... (أفق أينما وجهت صرت مفارقا)

---

[1] مراد الإمام بهذا البيت والذي يليه زوجته الشريفة المطهرة بدرة بنت الحسن بن محمد بن صلاح الزيدي من الأمراء آل زيد، وكانت حظية لدى الإمام أخبرني بذلك سيدي عبد الرحمن وأشار إلى ما جاء في إحدى قصائد الإمام إلى ابنه عبد الله وأخته فاطمة ولم يكن للشريفة بدرة المذكورة على الإمام إلا هما والبقية درجوا صغارا نحو ثمانية والأبيات المشار إليها هي:

وأمكما الحسناء سيدة النساء * فأحسن بها خلقا وأكرم بها نجرا

فما ولدت حوى أنثى كمثلها * ويكفيك هذا في محاسنها فخرا

هي الروح والسلوان والسؤل والمنى* اعد ذكرها جهرا إذا شئت أو سرا

[2] النوائق: جمع ناقة، والسقب: ولد الناقة.

فإنك ألبست الفصاحة حلةً تفوق ملاءا رامَهُرْمُز ودابقا[١]
وأنسيت نظماً للكميت وجرولٍ وصيّرت أرخاخَ القريض بياذقا[٢]
ولا غرو فالأشعار أصغر مفخرٍ غدوتَ به جل الأئمة فائقا
وأما فنون العلم فالكل مذعنٌ بأنك قد أوضحت منها الدقائقا
كبحر غدا باللؤلؤ الرطب قاذقاً وبالعنبر الشحري في البر دافقا
أو الغيث يهدي للسعيد منافعاً ويبعث حيناً للشقي صواعقا
كما جزت أرباب الكمال فلن ترى أخا رتبةٍ إلا لحقك سارقا[٣]
كأنك ذو القرنين طوّفت تبتغي مغاربَ في جمع النُّهى ومشارقا
ليعتبر النظار فيما أقوله ولا قدس الله الكذوبَ المنافقا
أمثل أمير المؤمنين ورهطه يرى الناسُ أفعالاً زكت ومعارقا
وأربعةٍ هل عدّ في أي معشرٍ نظير لهم سرداً كذا متطابقا
توسط عز الدين ما بين نجله وناجله كالورد زان الشقائقا
وبالحسن استكنى وبالحسن اعتزى وفي المكرمات السيدان توافقا
وإن سبق الهادي القديمُ حفيده فقد لحق الهادي الأخير ووافقا
وإن قلت قد أربى ونيّف لم يكن مديحي لبدر التم إذ تم ماحقا
ألم يك يحيى من حسين وقاسم فهل حط قدراً منهما كان باسقا
لقد فخرت عبسٌ بأن كان منهم ثلاثة أنفارٍ سراةٍ بطارقا
وثنوا لأم أنجبتهم بأنها سمت كل من زُمت عليها المناطقا[٤]
ولو عاش منهم من يرى لإمامنا بنينَ وإخواناً بدوراً شوارقا
ويكفي من الأسباط سبطان أعجبا وفي الرأي والإقدام صنوان طابقا

---

(١) رامهرمز وتكتب أيضا: رام هرمز وهي مدينة في كور الأهواز بناها هرمز بن سابور من ملوك الفرس (مروج الذهب ١٩٩/١) ودابق: مدينة أيضا كانت في أقاصي بلاد فارس (ياقوت: معجم البلدان). وقد جاء عجز البيت في نسخ المآثر هكذا: تفوق ملايا رام هرمز ودابقا؛ بدون أي تنقيط وما حررناه اجتهاد.

(٢) الأرخاخ والبياذق: من قطع الشطرنج.

(٣) علق في هامش المآثر: يشير فيه إلى ما صحح [الإمام] للمذهب من جواز أخذ الحق ولو على وجه قبيح مثل السرق ونحوه انتهى.

(٤) المناطق: تقدم شرحها. ويقصد فاطمة بنت الخرشب الأنمارية إحدى المنجبات ولدت لزياد العبسي عدة من البنين كان يقال لهم الكملة.

إذاً لرأى ساداتَ عبسٍ زعانفاً   وعدّ بها همامَ مُرّة لاصقا

***

فيا أيها الغادي على أرحبية   يباري ذواري الريح بَلْه الأيانقا
تعَدّ بها ماء بيرسم مصبحاً   ويمم بها ماء بحيدان غابقا
وطيش عليها في السواد مفاوزا   يظل بها الخريت حيرانَ باخقا
نجودا وأغواراً وحيناً عقنقلاً   ومتسعاً في طرقه ومضايقا
كأن يرابيعاً جعلن ببطنه   مساكنها من قاصعاء ونافقا[1]
فحين ترى الأهنوم عرّج تعمداً   على أرض قحطان كفيت العوائقا
إلى الشرف الأعلى وفي ذا إشارة   إذا كنت للتشريك في اللفظ رامقا
ومن حيد كحلان تكحل فإنه   يزيد الضيا نوراً ويجلو الحمالقا[2]
وإن كنت مكروباً فعفّر بتربه   جبينك تستفتحْ بذاك المغالقا
فإنّ مكاناً حل فيه إمامنا   جديرٌ بأن يحيي ثراه الخلائقا
وما لكرامات الأئمة منكرٌ   ومن قدرة الرحمن تنشى الخوارقا
كما خُصّ مركوب لجبريل إنه   يؤثر في الأشخاص حسا ملاصقا
ومن بعد ذا سلم عليه وقل له   فديتك موموقاً فديتك وامقا
أتاني نظام منك يفضح عرفه   رياض الربيع المزهرات العوابقا
وفيه من البين المشت شكاية   وما كان عن جمع الأحبة عائقا
وكون التلاقي للتنائي مظنة   وقربك للمحبوب يدني التفارقا
وعددت من صار الفؤاد مولعاً   بهم ومشوقاً غاية الشوق تائقا
فقلت وما تنسى التي صار ذكرها   له عبراتٌ قد أخذن المخانقا
(وهل كبدٌ تمشي على الأرض مثلها   يعز على أحشائها أن تفارقا)
فواهاً لها من نفثة وشكاية   وشقشقة هاجت فهاجت شقاشقا
ويا حسن ما عبّرت عن سر خاطري   وذكرتني رهناً لذي العول عاقلا

(١) اليربوع: دابة تجعل لمسكنها أبوابا بعضها ظاهر يسمى القاصعاء وبعضها باطن يتخذه إذا سد عليه الظاهر يسمى النافقاء.
(٢) الحمالق: باطن أجفان العين.

وهذا الذي أدنى محلي بصعدة وصيرني في أبحر الهون غارقا
حرمت ازدياد النيل من شغفي بهم فبتّ وما فضلٌ لدى الجيل نافقا
إذا الحرُّ أضحى والخمول نزيله بمنزلةٍ فاهتفْ به أن يفارقا
وقل يا أخي فارقْ تُرِقْ كل صاحبٍ فلن يقطع الصمصام إلا مفارقا
فلولا أطيفالٌ كزغبٍ من القطا بمشهدها تبقي النفوس خوافقا
لما كان ظلي للديار ملازماً ولا كان قلبي للمواطن عاشقا
ولا كنت إلا في العراق مزاحماً نحاريرها للمنتهين مرافقا
وإلا بأرض القدس صاحب خلوة غدا لكؤوس الصحو والمحو ذائقا
ولولا ثلاث هنّ من لذة الفتى وجدك لم أحفل بمن كان حانقا
فمنهن إتحافي عيالي بطرفة لفرحتها تبقي الثغور بوارقا
ومنهن خوفي أن يذلوا لقاهرٍ يرى ضارباً هذا وهاتيك دالقا
وتستخدم الكبرى في كل معنت ويقذف بالصغرى ورا الباب داهقا
ومنهن رجواي لهم أن يشابهوا أصولهم مهما استقلوا طرائقا
فليس يضر القومَ موتُ سَراتهم ولكن إذا شبّ الخلوفة مائقا
ولا الحسب المعروف لا در دره بمغنٍ وإن أمسى به العز عالقا
ووالله يا مولاي إن بباطني بكورَ شكاوٍ ضعف ذا وعوائقا
وإنك قد حركت داء مخامراً له زمن لم يلق في الطب حاذقا
وإن قد رمى عن قوس فحوى(١) نظمكم وقرطسَ حتى مرّ في القلب مارقا
فمنّوا على المملوك منكم بدعوة فما جاهكم عند المهيمن زاهقا
بتثبيته في قوله وفعاله وتبليغه فيما يروم الحقائقا
فأنتم لنا يا أهل بيت محمد ملاذٌ إذا خفتم علينا البوائقا
عليكم سلام الله ما هبت الصبا وما دام مخلوقٌ يسبح خالقا

انتهى المقصود وصلى الله على محمد وآله وكان الفراغ من تحرير ذلك منتصف شهر شوال من السنة المذكورة تسع وعشرين وأربعمائة وألف وكتب أسير ذنوبه والراجي عفوه ومغفرته عبدالرقيب مطهر محمد حجر سائلا الله

(١) في نخ: وإذ قد رمى عن قوس فحواي.

العفو في الدارين مصليا في الختام على محمد وآله انتهى

قلت: وهذه مكاتبة من مكاتبات عديدة جرت بين كاتب هذه الأحرف سامحه الله وبين سيدي المولى العلامة عبدالرحمن بن حسين شايم سوف تحرر وتجمع في كراس مفرد إن شاء الله، وجاء نشرها في هذه الأيام بمناسبة الذكرى الخامسة لرحيله عليه السلام والرضوان، نسأل الله أن يعود علينا من بركاته مصليا في الختام على محمد وآله وسلم تسليما كثيرا.